مجلة جامعة صبراتة العلمية
Sabratha University Scientific Journal

مجلة علمية نصف سنوية محكمة متخصصة في العلوم الإنسانية

تصدرها جامعة صبراتة بشكل الكتروني

العلاقة الفلسفة والأدب (في الفكر الغربي المعاصر)

Relationship between literature and philosophy (In contemporary Western thought)

د.عبد الله علي عمران

أستاذ مساعد بقسم الفلسفة كلية الآداب– جامعة عمر المختار

abdullah.ali@omu.edu.ly

رقم الإيداع القانوني بدار الكتب الوطنية:
2017-139

الترقيم الدولي:
ISSN (print) 2522 - 6460
ISSN (Online) 2707 - 6555

الموقع الألكتروني للمجلة:
https://jhs.sabu.edu.ly

العلاقة الفلسفة والأدب (في الفكر الغربي المعاصر)

Relationship between literature and philosophy (In contemporary Western thought)

د. عبد الله علي عمران

أستاذ مساعد بقسم الفلسفة كلية الآداب– جامعة عمر المختار

abdullah.ali@omu.edu.ly

ملخص:

تهدف الدراسة إلى تتبع العلاقة بين الأدب والفلسفة، سواء في شكلها التاريخي، أو النظري، ومعرفة الظروف التي ساهمت في تشكيل هذه العلاقة، والتركيز بشكل أساسي على علاقة الفلسفة بوصفها حكمة، والأدب بوصفه بلاغة، أي العلاقة بين قوة الفكرة وجمال الأسلوب، وهو ما يتطلب استخدام المنهج التاريخي والتحليلي والمقارن. وبطبيعة الحال كانت الآراء متباينة، بين من يرفض العلاقة أساسا ويعتبرها مضرة للطرفين، فلكل منهما مجاله الخاص، وبين من يقبلها مع تفضيل طرف على آخر، وفي المحصلة تبقى العلاقة بينهما نتيجة لتغيرات جذرية في طبيعة كل منهما بسبب التطور الطبيعي وتطور وتعقد طبيعة الحياة الإنسانية.

كلمات مفتاحية: أدب–فلسفة–حكمة–جمال

Relationship between literature and philosophy (In contemporary Western thought)

Abstract:

The study we presented here aims to track the relationship between literature and philosophy, both in its historical and theoretical form, and to know the circumstances that contributed to the formation of this relationship, and to focus mainly on the relationship of philosophy as wisdom, and literature as rhetoric, i.e. the relationship between the power of the idea and the beauty of the method, which requires the use of the historical, analytical and comparative approach. Of course, opinions differed, between those who reject the relationship in the first place and consider it harmful to both parties, each of them has its own field, and those who accept it with the preference of one party over another, and in the end the relationship between them remains the result of radical changes in the nature of each other due to natural development and the development and complexity of the nature of human life.

Key words: literature - philosophy - wisdom - beauty

مقدمة:

يجب التأكيد قبل كل شيء، أن وجود حد فاصل بين ضروب المعرفة وفروع العلم، يبدو أمرا عسيرا، حتى في أرقى أشكال العلم وأكثرها دقة، فلا يمكن أن يوضع حدا فاصلا، بين الرياضيات والفيزياء مثلا، أو بين الفيزياء والفلك، أو بين الطب والأحياء. فكيف هو الأمر في أشكال المعرفة الأقل تحديدا والأقل ضبطا، مثل ما هو الحال في الفلسفة والأدب، وبناء على ذلك يصعب تحديد ما هو فلسفي في بنية الأدب وما هو أدبي في بنية الفلسفة، بل قد يصل الأمر إلى وجهات النظر والمعايير المتباينة، فإذا كان هناك خلاف أصلا داخل نطاق الفلسفة على ما هو فلسفة وخلاف داخل نطاق الأدب على ماهية الأدب، ولذلك سيكون الأمر أكثر صعوبة، عندما يتعلق بمحاولة اكتشاف أحدهما وهو مختبئ داخل الآخر، بل قد يكون مستحيلا، عندما نتحدث عن نتاج المفكرين الذين ينتمون إلى المجالين معا، كما هو الحال عند (سارتر)، فقد خلطوا أفكارهم الفلسفية وأسلوبهم الأدبي.

يضاف إلى ذلك التاريخ الطويل، من تجاور الفلسفة والأدب، مما نتج عنه علاقة متذبذبة، تكون حينا متداخلة وحينا متكاملة وأحايين أخرى متعارضة،و لابد من التنويه أيضا في هذا السياق، إلى أن هناك عدة متغيرات ثقافية وفكرية، كان لها الأثر البارز في إعادة تشكيل كل منهما، فقد أسهمت الطباعة وازدهار النشر للمجلات والكتب، في تحولات كبرى، سواء في الأدب أو الفلسفة، لقد أصبحت هناك نقاط تماس بين المؤلف والجمهور، وضعت المؤلف تحت ضغط التطورات اليومية، ومن هنا وجد كل من الأدب والفلسفة نفسيهما تحت تأثير القلق اليومي للجمهور، فتنازل الأدب عن طابعه الكلاسيكي الذي كان سائدا خلال العصور الوسطى، كما تخلت الفلسفة عن طابعها الجامد.

بشكل عام، يبدو موضوع البحث خصبا ومترامي الأطراف، يزخر بالكثير من الأسئلة، التي لا يمكن إطلاق الوعود بالإجابة عليها جميعا، بل الإجابة على بعضها والاكتفاء بإثارة بعضها، على غرار كيف نصنف النصوص التي تجمع بين الفلسفة والأدب؟ هل هي ضمن النصوص الفلسفية؟ أم النصوص الأدبية؟ أم صنف ثالث لا ينتمي إلى هذا أو ذلك؟ أيهما لجأ إلى الآخر لكي يستنجد به؟ هل أصبح الفيلسوف أديبا، نتيجة لازدهار الأدب، أم أصبح الأديب فيلسوفا نتيجة لرفعة الفلسفة؟ هل اتسعت دائرة الأدب لتبتلع النصوص الفلسفية؟ أم اتسعت دائرة الفلسفة لت النصوص الأدبية؟

ولماذا يلجأ الفلاسفة إلى الأدب، ويلجأ الأدباء إلى الفلسفة؟ هل يرغب الفيلسوف في التنكر؟ خوفا من رقابة السلطة؟ فليجأ إلى الأدب الذي يعد ميدانا واسعا وتربة خصبة لزراعة الرمزية؟ فهل فقدت الفلسفة بريقها؟ وأصبح الفلاسفة بلا وظيفة، فأصبحوا يزاحمون الأدباء؟ أم فقد الأدب جاذبيته، و تحول الأدباء إلى الفلسفة بحثا عن موطئ قدم؟ أم أن الأمر مرتبط بالقيود والحروب التي تشن على الفلاسفة، فقرر الفلاسفة العمل كمرشدين سريين للحقيقة، من خلال التخفي والعمل كأدباء؟ فالكل يتربص بالمفكرين دون أن يعبأ أحد بما يقوله الأدباء؟ أم أن الأسلوب الأدبي يجعل الفيلسوف أكثر غواية وقبولا، بل يمكن أن يجعله أكثر وضوحا أيضا. في المقابل هل يصبح الأديب المتفلسف، أكثر نجاحا ويتفوق على أقرانه؟ بعمق أفكاره؟

أولا: ما (الأدب)؟ وما (الفلسفة)؟

لابد من توضيح المصطلحين الأساسيين في البحث، وهما (الأدب) و(الفلسفة) قبل الخوض في تحديد طبيعة العلاقة بينهما، ولكن لابد من التذكير، أن المقام لا يتسع، للخوض في تفاصيل وخلافات المصطلحات، فالخلاف حول ماهية الأدب قديم ومستمر، ولا إجماع أو حتى وفاق حوله، والخلاف على مصطلح الفلسفة أشد وأكثر وضوحا واستمرارية، مما يتطلب تعريفات إجرائية، تحدد بشكل عام، ما المقصود بالأدب والفلسفة في طيات هذا البحث، وما هي السمات العامة التي سيتم التركيز عليها. وأهم هذه السمات هي الأسلوبية والشاعرية والجمالية والفنية بالنسبة للأدب، والحكمة والحقيقة فيما يتعلق بالفلسفة، وكيف كانت العلاقة بينهما.

1-الأدب

كما أسلفت، سيكون الحديث عن الأدب، إجرائيا و موجزا، يتناول التصور العام فقط، و يبتعد عن التفاصيل، وعن الخلافات والجدالات، التي أثيرت حول هوية الأدب ووظيفته. وهي خلافات أكثر من أن تحصى، منها على سبيل المثال، إشكالية ما إذا كان الأدب هو هروب من الواقع؟ أم هو في حقيقته تعبيرا عنه، إضافة لإشكاليات معايير الأدب من حيث الشكل والمحتوى، والتمييز بين الأجناس الأدبية.

فتحديد ما هو الأدب بدقة، لا يبدو أمرا مضنيا فحسب، بل مستحيلا أيضا، نتيجة للتغيرات التي طالت المفهوم خلال مراحل تطوره في التاريخ الإنساني.[1] كما أن الحديث عن مفهوم الأدب له دلالاته المختلفة عربيا وغربيا،فقد تطور عربيا من كونه يعبر عن حسن الضيافة (مأدبة) وحسن الأخلاق والتعليم (تأدب)، حتى أصبح صنعة أهل اللسان، كما يصوره (ابن خلدون)،[2] أما وفقا للتصور الغربي، فهو مصطلح حديث العهد في أوروبا، إذ بدأ يتحدد في القرن 18، ذلك لأن الأصل اللاتيني للفظ Littera الذي يدل على النصوص التي تكتب لتحفظ، أيا كانت مواضيعها، و هو ما ظل سائدا بهذا المعنى حتى أواخر القرن السابع عشر.[3]

يضاف إلى ذلك، وباعتبار أن الأدب، نشاطا إبداعيا إنسانيا، يتصل اتصالا وثيقا بالزمن والتاريخ والإنسان، فهو يتطور بتطور المجتمع ووسائطه وعلاقات الناس فيما بينهم. كما أنه يتغير بتغير الحاجات الإنسانية ومقاصدها، وهو يتفاعل مع جديد الأفكار والاكتشافات والمعارف، لذلك لا عيب في الحديث عن ظهور أنواع جديدة منه واختفاء أنواع أخرى قديمة. وما ينطبق على الإبداع ينطبق عن تحليلاته ومدارسه النقدية[4] وكل ذلك يعقد من مهمة تحديد طبيعته ويزيدها صعوبة.

أما وظيفة الأدب، فهو في العموم، يستطيع أن يجعلنا أكثر فهما للعالم، ويعيننا على أن نحيا، فهو يسعى لفهم التجربة الإنسانية (أسوة بالفلسفة والعلوم الإنسانية)، وبالتالي يمكن لـ(دانتي) أو (سيرفنتيس) أن يعلمنا عن الوضع البشري، كما يفعل كبار علماء الاجتماع، دون أن يكون هناك تعارض بين المعرفتين.[5] من جهة أخرى، يرى (هازار) أن الانجليز، كما الفرنسيس، أعطوا النثر فعالية جديدة، وشحنوه بالأفكار، جاعلين منه نثرا مقاتلا وعدوانيا، لقد سكبوا فيه الأخلاق والدين والفلسفة كلها.[6] بمعنى أن النثر (الأدب) أمتزج بمعارف أخرى، لكي تستفيد من صفة التمرد التي يتسم بها، وبالتالي أصبح وعاءا تسكب فيه تلك المعارف والعلوم.

بشكل عام، يعتبر الأدب شكلا من أشكال الفنون الجميلة، ويتميز عن بقيتها بالكلمة، والتي تحمل غالبا دلالات متعددة، منها ما هو معجمي ومنها ما هو اصطلاحي، يخضع لإيحاء الكاتب وتأويل القارئ.[7] أي أنه يهتم بالسمات الجمالية وما يتعلق بالأسلوب وقوة العرض. وبشكل عام يميز الأدب على أنه يستخدم لغة رمزية وكلمات ذات دلالات متعددة، لذلك هو يستعين بالخيال.[8] وكل هذا يجعل من الأدب، ليس أقدم وسيلة للتعبير فحسب، بل والأهم أيضا.[9] وبذلك يمكن القول في المحصلة، إن أهم ما

يميز الأدب كوسيلة للتعبير، تستخدم للتأثير على الجمهور، ونشر وذيوع الأفكار، أنه يركز على الأساليب الجمالية، التي تكون غالبا ذات دلالات متعددة ومركبة ورمزية.

2-الفلسفة؟

إن أقدم التعريفات وأكثرها التصاقا بالفلسفة، لكون الاسم نفسه اشتق منها، هي اعتبار أن الفلسفة، محبة للحكمة، وإن كان قبل ذلك يوصف الفيلسوف بالرجل الحكيم، إلا أن تحولا طرأ على المصطلح على يد (فيثاغورس) فأصبحت الفلسفة هي (محبة الحكمة).[10] أما من حيث موضوعاتها، ومنطقة نفوذها، فهي تشغل مساحة واسعة جدا من الفكر، تلك المنطقة الشاغرة الواقعة بين اللاهوت من جهة و العلم من جهة أخرى، كما يراها (رسل).[11] وهو منطقة تتقاطع فيها الأسئلة الكبرى، حول مصير الإنسان و دوره وإرادته.

وتتميز الفلسفة بعد سمات، أهمها أنها ذات طبيعة (تساؤلية) أو (لماذائية)، لأن قيمة الفلسفة، تزيد بقدر ما تثيره من أسئلة، وليس بقدر ما تقدم من أجوبة، لأنه عادة لا توجد مثل هذه الأجوبة المحددة، التي يمكن التحقق من صدقها، فهي تنقص الادعاء الزائف بوجود يقين، وهو ما يحول بين العقل وبين التأمل والتدبر.[12] وذلك ملازم لطبيعتها (الشكوكية) و(الارتيابية)، الرافضة لكل أشكال اليقين. كما أنها ذات طابع (متمرد)، أي القدرة على النفاد في ذلك القالب الميت من العرف والتقاليد، بهدف الخلاص من الأفكار المسبقة والحصول على سبيل أمثل لرؤية الأشياء. الفلسفة محاولة لتذويب عادات التفكير المتجمدة، والاستعاضة عنها بعادات أقل خشونة وصرامة،[13] ويمكن إيجاز كل ذلك في الطابع النقدي للفلسفة، الذي يعتبره (بوبر) هو بمثابة الدم الذي يجري في عروقها.[14]

ثانيا:علاقة الفلسفة بالأدب

يعلمنا تاريخ الفلسفة-خاصة في الفكر الغربي- أنها كانت تشمل كل العلوم والأنشطة الفكرية، فكان الفيلسوف لا يترك مجالا إلا ويخضعه لنمط سؤاله العام، ويدخله ضمن تصوره عن العالم والإنسان والمجتمع، فنجد لديه آراء في السياسة والعلوم والاجتماع والفن والأدب واللغة.[15] والعلاقة بين الفلسفة والأدب علاقة وثيقة جدا، وتظهر جليا في الأفكار الفلسفية التي تضمن في الكثير من النصوص والأعمال الأدبية، لكثير من الكتاب العظام، ولكن حدود العلاقة بين الفلسفة والأدب وطبيعتها كانت دائما مثارا للجدل منذ العصر الإغريقي وحتى عصرنا هذا.[16] مما يعني أن للفلسفة علاقة بكل ضروب الكتابة والمعرفة وليس الأدب استثناء، ولكن العلاقة بين الفلسفة الأدب تعد أقدم من ضروب المعرفة الأخرى، ولذلك شهدت تحولات وتغيرات كثيرة.

وعلى الرغم من هذه العلاقة الوثيقة، إلا أنه لا يمكن-حتى الآن- الحديث عن علاقة بين الفلسفة والأدب، وكأن أحدهما فرع للأخر، مثل علاقة الفلسفة بالميتافيزيقا أو المنطق، ولذلك قد يبدو أن العلاقة

بينهما، تعاني من نفس المفارقة التي تعاني منها علاقة الفلسفة بالفروع المعرفية الجديدة الأخرى(الفلسفة والتكنولوجيا مثالا) وبالتالي يفتقر هذا المجال إلى التماسك ويبدو مجزأً، وأفضل وصف لكل دراسة من دراساته هو التخطيط أو المحاولة، والمناقشات النقدية هي الأفضل. وما لم تؤخذ علاقة الفلسفة بالأدب على محمل الجد، وتعتبر مجالا فرعيا للفلسفة، وتحدد الأرضية المشتركة للحوار والنقاش والإشكاليات، فلن يحرز هذا المجال أي تقدم.[17] فلم تصبح فلسفة الأدب فرعا ناضجا من فروع الفلسفة، ولا أصبح الأدب الفلسفي، فرعا معترفا به في مجال الأدبيات.

ومع ذلك، يمكن الحديث بشكل عام، عن دوائر عدة، يتمثل فيها كل من الأدب والفلسفة، وبالتالي، يمكن الإشارة إلى نقاط عدة تتقاطع فيها الفلسفة مع الأدب، فكلاهما من حيث الإطار العام، يعد نتاجا إنسانيا، يرصع به الإنسان، جدران بنيانه الحضاري، وبغض النظر عن أسبقية أحدهما عن الآخر، إلا أنهما كانا دائما يمثلان أهم مظاهرة الحضارة الإنسانية عموما، ومن جهة أخرى، يتقاطع كل من الأدب والفلسفة من حيث الموضوع ألا وهو (الإنسان) ومشاعره وقضاياه، كما يمكن الحديث عن تقاطع من حيث الوظيفة وهي (تعرية الواقع) وإضفاء المعنى والقيمة عليه، وفقا للتصور (النيتشوي) لأن الفلسفة ترغب في نفس ما يرغب فيه الفن، وهو إضفاء أكثر ما يمكن من العمق والمعنى على الحياة وعلى الحركة.[18] وفي ذات السياق، يرى (ريكمان) أن دور الأدب لا يتوقف فقط عند نشر الأفكار وجعلها أكثر انتشارا وقبولا، بل الأمر أكبر من ذلك، لأن فهم طبيعتنا البشرية، يكون متاحا أكثر من خلال كتابات عباقرة لهم خيالهم الخصب، أمثال (ديستوفسكي) و(شكسبير).[19] وفهم الطبيعة البشرية، هي من أهم الأهداف التي تسعى الفلسفة إلى تحقيقها.

1-العلاقة بين الجمال والحكمة (تاريخيا)

إذا كانت الفلسفة تعني الحكمة، والجمال يعني الفن عموما والأدب بشكل خاص، فالعلاقة بينهما قديمة جدا، ولعل أقدمها العلاقة بين الشعر والحكمة، تلك العلاقة التي كان لها حضورها الواضح، في تعامل اليونان مع شعرائها أمثال (هوميروس) وقصائده الملحمية، (الإلياذة) و(الأوديسة)، وذلك لأن الشاعر،كان يمارس أدوارا مختلفة، فهو يحفظ تاريخ الأمم، بالحديث عن الانتصارات والأبطال، وإن كان يميل إلى جمالية الأسلوب والسرد، أكثر من توخيه صحة ودقة الأحداث.[20] كما أن الإنسانية أصغت منذ القدم للشاعر الروماني (لوكرسيوس) وهو يملأ أبيات قائده، عن (طبيعة الأشياء) بمسائل فلسفية أصيلة.[21] وقد ضم لفظ الشعر بين أعطافه، الفكر الذي يشبه الفكر الفلسفي مثل مصير الإنسان والوجود والحياة والموت والكون والصيرورة.[22]

في المقابل، كانت الفلسفة ما قبل السقراطية، وقبل ظهور النسق الأفلاطوني، يعبر عنها بواسطة القصيدة والشذرات النثرية، فتصور (بارمنيدس) للعالم صاغه في قصيدته في الطبيعة،[23] بل إن عددامن أعمال أفلاطون ومحاوراته (الفلسفية) هي أعمال أدبية حقيقية، وتعد محاورة (المأدبة) نموذجا للعمل

الأدبي.[24] بمعنى آخر، لم يكن الفكر الفلسفي الغربي، في بدايته اليونانية لم يكن يحتاط من اللغة الشعرية.[25]

وإن كان هناك أمثلة أخرى، تفيد بالعكس، فقد أعلن (أفلاطون) صراحة، أنه إذا استتب أمر الحكم للفلاسفة وحكموا دولته المثلى، فعليهم أولا، طرد الشعراء منها، لعدة أسباب أولها وليس أهمها، أن الشعر قد يحتوي دعوة للرذائل، وبالتالي لا يبقى من الشعراء إلا من يلتزمون بذكر مآثر الآلهة، فيما عدا ذلك، يجب مقاومة إغراء الشعر كما نقاوم إغراء المال والشهوة، إذا ما كان ما حضنا على إغفال الخير والفضيلة. أما السبب الأهم فهو"أن بين الشعر والفلسفة معركة قديمة العهد"[26] والشعراء هم المبادرون بالعداوة. ولكن ذلك ليس حكما نهائيا، بل يترك أفلاطون الباب مفتوحا أمام الشعراء ليثبتوا جدارتهم، وأن يسحرونا بشعرهم كما فعل هوميروس.[27]

ويقسم أفلاطون البلاغة إلى نوعين، أولهما البلاغة السيئة التي يستخدمها الخطباء للتوهيم ونشر الخرافة، بينما البلاغة الحقة، هي البلاغة الفلسفية، التي تعنى بالحقيقة، وهي التي يطلق عليها أفلاطون بسيخاغوجيا (Psychagogie) أو تنشئة النفس بواسطة القول، والمقابلة بين بلاغة سيئة وبلاغة جيدة، هو بطبيعة الحال تمييز، بين البلاغة السوفسطائية والبلاغة الفلسفية.[28] إن الموقف الأفلاطوني نفسه كان مترددا بين الفلسفة والفن، ولم يستطع أن يتخذ موقفا نهائيا يحدد فيه الجانب الذي ينحاز له، فلا يدري هل كان الفن وسيلة لغاية هي الفلسفة؟ أم أن الفلسفة وسيلة لتحقيق غايات الفن؟[29]

وفي الثقافة العربية، رفع العرب من منزلة الشعر والشعراء، لأنهم كانوا لسان القبيلة و المدافع عنها، ولأعطوا بعض القصائد (المعلقات)، مرتبة تقترب من القداسة، و لذلك لا يمكن أن تترك لألسنة الرواة، فكتبت (بماء الذهب) وعلقت على أستار (الكعبة). ومن المحاولات التي ذهبت بعيدا في البحث عن محتوى فلسفي في الأدب العربي، هي محاولة (جلال الجهاد) في كتابه (فلسفة الشعر الجاهلي)، وينطلق منذ البداية في التأكيد على أن قضية الشكل (الوزن والقافية) والبيئة (البدوية) كانتا هما العائق الأساسي أمام فهم الشعر الجاهلي بمعناها الفلسفي.[30] وعلى الرغم من الدلالة السلبية للشعر والشعراء، التي وردت في القرآن الكريم،[31] وإن أختلف في تأويلها، إلا أن قول رسُولَ اللَّهِ ﷺ "إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكْمَةً".[32] يؤكد ذات الفرضية التي تعلي من شأن الشاعر و من قيمة الشعر، التي يمتزج فيها الأسلوب الأدبي الجمالي والحكمة وسعة الأفق.

وبشكل عام، كانت هناك العديد من القضايا الفلسفية في الشعر العربي، وإن كانت موجودة حتى في الشعر الجاهلي، إلا أنها أصبحت أكثر وضوحا وشيوعا في العصور المتقدمة، أي نهاية العصر الأموي والعصر العباسي، مثل قضية (الذاتية) و(المأساة)، بل نظم الشعر انتصارا لبعض الإشكاليات الفلسفية الصريحة، مثل (التسيير والتخيير)[33] وذلك في إطار التأييد المذهبي، حيث كان لكل فرقة رأي تود أن تجعله أكثر شيوعا، واستخدم الشعر كوسيلة من وسائل الإعلام والذيوع.

وهناك شعراء بارزون، عرفوا بأشعارهم ذات الطابع الفلسفي أمثال (أبو العلاء المعري)،فلا خلاف بين النقاد والمؤرخين، على أن في شعر أبي العلاء إطلالات ومعالجات ومواقف فلسفية، ما حمله قبله أي شاعر آخر في العربية.[34] إضافة إلى كتابه (رسالة الغفران) و(اللزوميات) حيث تناول به فكرة الموت باستفاضة وجعلها محور فلسفته.[35] أما في مجال الأدب واللغة، فيمكن تصنيف نتاج (الجاحظ) على أنه نتاج فلسفي، وإن لم يؤسس مذهبا فكريا منظما، كما هو عند (أرسطو) و (ديكارت)، أما لو اعتبرنا أن كل ما قيل في الإلهيات والميتافيزيقا، هو من الفلسفة، فهذه الموضوعات نالت حظا من اهتمام الجاحظ.[36] وهناك من يرى شبها وتقاربا بين الفلسفة وكتابات أهل التصوف، أمثال (الحلاج) و(النفري) و(ابن عربي)، ممن مارسوا علاقتهم بوجودهم وهويتهم كاختلاف وانشقاق وانفتحوا على تعددية المعنى والتباسه، وأدركوا إشكالية الحقيقة ومفارقاتها. بل إنهم لاقوا ذات مصير(الفلاسفة) من الجنون والاستشهاد.[37]

إلا أن تلك الصلة بين الشعر والحكمة، لم تستمر في العصور اللاحقة، فبعد أن كان الشاعر، وثيق الصلة بالمفكر (المتكلم والفيلسوف) يغامر معه في اكتشاف معاني الوجود ومسائل الكون والكائنات، مطلقا العنان للخيال الذي يجمع بين العوالم المتباعدة، انقطعت هذه الصلة، ولم يعد أشباه أبي فراس يباهون مثله بأنهم من الفلاسفة، ولم يعد لفظ الحكيم يطلق على أبي تمام والمتنبي والمعري، وتحول الشاعر إلى صانع للتذييل على أشعار الآخرين.[38]

ونجد ما يقابل تلك القطيعة في الفلسفة المسيحية، حيث أكد القديس (أنسلم) في كتاباته على ضرورة الالتزام بالحجة العقلية، وأن يكون الكلام واضحا، وهو ما يعني ضرورة الخروج عن عادات العصر الأدبية، التي اقتصرت على تفسير الكتاب المقدس.[39] ويستمر الحال على ما هو عليه، حتى عصر النهضة، فنجد أعمالا مثل(الكوميديا الإلهية) لـ(دانتي)، والتي لم تكن إلا تصويرا أدبيا رمزيا للنظرة الدينية–الفلسفية، التي شملت اللاهوت والفلسفة والأدب والعلوم، وكل أنواع النشاط الفكري الإنساني، فقد عدت البلاغة بمثابة دعم للمنطق في العصور الوسطى، وأتبعت بها الخطابة، أما الفلاسفة المدرسيون فقد عدوها جزءا من الفلسفة، بل استخدموها أيضا كإحدى الوسائل للتوفيق بين العقل والوحي أو البحث الفلسفي واللاهوتي.[40]

وفي عصر التنوير، فرضت الفلسفة نفسه على الاتجاهات الأدبية والفنية، حيث تعطرت بروائح فلسفية، وعلى رأسها أعمال (فولتير) الذي حول مشاهد مسرحياته إلى منابر، تتصدرها الأفكار الفلسفية والنفسية، كما هو الحال مع مسرحية (أوديب) Oedipe ومسرحية (ميروب) merope، وكذلك (دنيس ديدرو) الذي امتلأت الأنواع الأدبية التي أبدعها بأمهات المسائل الفلسفية، على غرار (حلم دالمبرت) The Dream of D'Alembert، وكذلك الشاعر (أندريه شينيه) والشاعر (ألفريد دي فينيي) اللذان كانت قصائدهما تزخر بالقضايا الفلسفية.[41] إضافة إلى (يوتيوبيا) (توماس مور) وكذلك (أتلانتس الجديدة) وهي الرواية التي لم يتمكن (بيكون) من إكمالها، حيث كانت أعمال أدبية ذات طابع فلسفي.

وفي الحقبة الحديثة، لا يمكن أن نتصور كتابا يؤرخ للأدب الانجليزي في القرن 18 لا يتناول بالتفصيل أعمال (باركلي) و(هيوم) و(بطلر) و(آدم سميث).[42] فقد تناول (ماركيه) في كتابه (مرايا الأدب المسكون بالفلسفة) مجموعة متنوعة، تجمع بين نصوص فلاسفة بوصفها أدبا وكان أشهر النماذج التي أختارها ونصوص بعض الأدباء بوصفها فلسفة إذ يرى أن (كيركيغارد) الذي يصنف على أنه فيلسوف رغم إنكاره المستمر لذلك، حيث تعد روايته (مذنب غير مذنب) هي الأكثر قدرة على البقاء من بين مؤلفاته.[43] ويرى(ماركيه) أيضا أن (هوغو) هو الوحيد الذي أستطاع أن يكون شاعرا وفيلسوفا على مدى 2000 عام.[44] ويؤكد (ويلسون) على أن (برنارد شو) ينتمي إلى الطائفة التي ينتمي إليها أفلاطون وأرسطو، لكونه مفكرا وجوديا بالمعنى العميق للكلمة، وأن غوته الذي يعرفه الناس شاعرا عاشقا، هو في الحقيقة يملك ذهنية الفيلسوف التحليلية القلقة، ولكن غوته الشاعر حجب غوته الفيلسوف.[45] في الثقافة العربية، هناك العديد من الشعراء المعاصرين أمثال (جبران) يكتبون القصيدة الفلسفية،[46] وأيضا (ميخائيل نعيمة)، الذي كان شعره ومسرحه، يحملان مضامين فلسفة إنسانية،منها مثلا رواية (اليوم الأخير)، حيث يبدو جليا أنه وقع تحت تأثير الفلسفة خاصة الأفلاطونية.[47]

وبشكل عام، يمكن التأكيد على أن الفلسفة المعاصرة، انتفضت على كثير من المقاييس العقلانية، التي تميز بها الفلسفات السابقة، وانتهى عدد كبير من المهتمين بالفكر الفلسفي المعاصر أمثال (دولوز) و(دريدا) إلى القول أن المسألة لا تتعلق بمجال معرفي أو إبداعي معين، بقدر ما تشمل قضية جوهرية، يمكن تلخيصها في قضية الكتابة.[48] أي أنه خلال تاريخ الفكر الإنساني وخاصة في الحقبتين الحديثة والمعاصرة، كانت العلاقة بين الفلسفة والأدب وثيقة جدا، إلى حد وجود شعراء فلاسفة وفلاسفة شعراء.

2- الإطار النظري لعلاقة الفلسفة بالأدب

أ- فلسفة الجمال والفن، والنقد الأدبي

تعد فلسفة الجمال Aesthetics و(فلسفة الفن) من أهم أشكال تجاور الفلسفة والفن، فلقد كانت (البوطيقا) أو فن الصياغة الشعرية، فرعا هاما من فروع الفلسفة، ولقد أولت اهتماما كبيرا بالشعر، الذي كانت (الملاحم) أبرز مظاهره. وإن انفصلا حين لجأ النقد الأدبي إلى العلوم الإنسانية، التي كانت تحت تأثير الوضعية.[49] فمن (أرسطو) إلى (لوكاش)، ظل (علم الجمال) بمعناه الواسع، مبحثا مركزيا عند الفلاسفة الكبار.[50] فلا يمكن أن يذكر (أرسطو) دون الإشارة إلى كتابه (فن الشعر) ونجد محاولة مشابهة عند (هيغل) في كتاب بنفس العنوان (فن الشعر)

ويرى (كروتشه) أن فلسفة الفن، تعد أفضل الفروع الفلسفية، من حيث صلاحيتها لأن تكون مقدمة لدراسة الفلسفة؛ لكون موضوعاتها (الفن) و(الشعر)، تتناسب مع اهتمامات فئة الشباب، وطرق تفكيرهم، ذلك لأنها أقرب إلى الواقع، من موضوعات المنطق والأخلاق، ذات الطبيعة المجردة، فمسائل الفن، لا تؤدي إلى الفكر والتأمل فحسب بل إلى التذوق أيضا.[51] وكأن (كروتشه) يريد أن يقول، أن

موضوعات واهتمامات فلسفة الفن، بسبب طبيعتها المزدوجة، قادرة على أن تربط الفلسفة بالواقع، وأن تجعل الفلسفة مقبولة لدى الدارسين، خلافا لموضوعات وفروع الفلسفة الأخرى.

ولقد دخلت الفلسفة إلى باحة الأدب، من أبواب عدة، فقد دخلت من باب التقييم الأخلاقي ومعيار المطابقة بين اللغة والوجود، بحثا عن خصائص القول الصادق والقول الكاذب، حيث كان مسعى الفلسفة يتوق إلى إحكام المنظومة المنطقية بغية تطهير الحجاج الفلسفي من رواسب السفسطة.[52] وقد اختلطت الفلسفة بالأدب على يد الفلاسفة الوجوديين مما أدى إلى ازدياد اهتمام الفلاسفة بالفن عامة و الأدب خاصة، كما فتح المجال أمام الأدباء للمشاركة في عملية تحليل الخبرة الجمالية، وبذلك أصبحت فلسفة الفن في القرن العشرين، مثار اهتمام كبير لدى كل من الفلاسفة والأدباء كما صارت فرعا هاما من فروع البحث الفلسفي لدى أصحاب المذاهب الفلسفية.[53]

أما فلسفة الأدب Philosophy of Literature، تمثل بشكل عام، التنقيب عن الأدب وأفكاره، وقضاياه، وموضوعاته،للتخصصات الفلسفية الفرعية الواسعة النطاق، مثل علم الجمال (العلاقة بين الأدب والفنون اللفظية)، والميتافيزيقا (الحالة الوجودية للأدب أو العوالم الممكنة)، ونظرية المعرفة (شروط الحقيقة من حيث العوالم الممكنة)، وفلسفة اللغة (الأدوات والتقنيات التي تم تطويرها للنقد الأدبي والنظرية الأدبية)، وفلسفة العقل (الخيال والعقلية الأخرى الدول التي يتم تشغيلها من خلال التعامل مع الأدب.[54]

فلم يتحرك الفلاسفة الغربيون داخل دوائر فلسفية مغلقة على الفكر الفلسفي، لكنهم جميعا وبلا استثناء تقريبا في تعاملهم مع الذات والخارج والداخل والحقيقة والواقع والمثال، كانوا أيضا منظرين في النقد والدراسات اللغوية، فقد كانت المناقشات الدائمة حول هذه الأمور الفلسفية تقودهم دائما إلى الحديث عن الإبداع الأدبي والفني ووظيفة اللغة.[55] ولهذا مثلت الفلسفة جزءا من النقد الأدبي، وذلك حين تطرح الفلسفة أسئلتها النقدية المعتادة، حول ماهية الأدب وشروطه ومعاييره، ولعل أشهر النماذج في هذا السياق هو كتاب(كانط) (نقد ملكة الحكم) الذي يعزى له تكريس الفصل بين مجال الفن (بما فيه الأدب) ومجال العلم.[56] وأيضا (سارتر) في كتابه (ما الأدب) والذي تناول فيه عدة قضايا مثل ماهية الأدب ومعايير الأدب الملتزم و(لماذا نكتب؟) و(ما الكتابة؟) و(لمن نكتب؟) والنقد الأدبي تربطه بالمذاهب الفلسفية الكبرى، علاقة وطيدة ومتواترة. كما أن هناك العديد من أشكال النقد الأدبي استعارت مناهجها من الفلسفة، كما حدث بخصوص (النقد البنيوي للأدب)

وقد ارتبط المصطلح الفلسفي والمصطلح النقدي، لدرجة أنهما أصبحا يشتركان عادة في الدلالة.[57] حيث يعتبرها (دي مان) شكلا من أشكال تطور أدوات النقد من جهة وتطور في أسلوب الأدب من جهة أخرى، فقد أصبح الأدب والنقد الأدبي يهتمان بمقولات مثل الواقع والذات والإنسان والمجتمع، مما نتج عنه ما يمكن أن نطلق عليه (نصوصا هجينة) Hybrid texts والتي يمكن عدها أدبية من جانب، وإشارية من جانب آخر.[58] بل هناك في تاريخ الفلسفة العديد من الحالات، التي تدل

على ولع بعض الفلاسفة بنصوص بعض الشعراء، وصل الأمر إلى تأليف كتب ودراسات نقدية حولهم، كما فعل (فوكو) مع (روسيال) وهو أمر لا يختلف عما فعله (هيدجر) مع (هولدرين). إلى أن وصل الأمر، لدرجة أصبح تمجيد الفيلسوف الناقد، هو تمجيد للشاعر أيضا.[59]

وقد شكلت أعمال (دريدا) مجموعة جديدة متكاملة من الاستراتجيات القوية، التي وضعت (ناقد) الأدب، لا على قدم المساواة مع الفيلسوف، وإنما وضعته أيضا ضمن علاقة معقدة –إن شئت قل تنافسية– مع الفيلسوف نفسه، وقد أدت هذه العلاقة إلى كشف الادعاءات الفلسفية وتعريضها للتساؤل البلاغي، وقد وصف (بول ديمان) هذه العملية التي يتحول فيها الأدب ليكون الموضوع الرئيسي للفلسفة، فضلا عن كونه أيضا نوع من الحق الذي تنشده الفلسفة، والناقد عندما ينتبه إلى الطابع البلاغي للمحاورات الفلسفية، بأن يكون في وضع قوي، يعكس تلك الإساءة القديمة إلى الأدب بأنه مجرد شكل من أشكال اللغة الخادعة التي تحط من القدر.[60]

ب– فلسفة اللغة (علاقة الفكر باللغة وبالواقع)

لأن اللغة تبدو مصدرا لكثير من المشاكل، أصبحت وثيقة الصلة بالفلسفة، التي كانت من أهم سمات القرن العشرين، كما أن الفلاسفة لم يكتشفوا اللغة فجأة في هذا القرن، فثمة كثير من الحديث عن اللغة، عند (أفلاطون) في (النيوتتوس)، كما نجده عند (لوك)، الذي وضع كتابا كاملا عنها، وثمة نظرية في اللغة عند (هيوم)، و(فريجة)، في نهاية القرن التاسع عشر، و(رسل) في مطلع القرن العشرين، وهي تطورات أكثر حداثة، قادتْ مباشرة إلى جعل اللغة قُطب الرحى في الفلسفة.[61]

ومن أبرز تلك الإشكاليات، هي(علاقة اللغة بالفكر)، وهل اللغة مجرد وسط شفاف ينقل لنا نتاجات الإنسان المختلفة، من دون أن يكون له أي تأثير عليها، أو يكون لتلك النتاجات تأثير على اللغة، وأيهما أسبق على الأخر (الفكر أم اللغة؟) وبرزت ثلاث نظريات أساسية، فترى الأولى والتي يتبناها (واطسون) أن هناك انصهارا بين اللغة والفكر، بينما ترى الثانية التي أخذ بها (جون ديوي) أن هناك استقلالا نسبيا بينهما، وترى الثالثة أن هناك انفصالا تاما بينهما، بل قد تكون اللغة عائقا أمام الفكر كما هو الحال عند (برجسون).[62]

وإذا قلنا أن (الفلسفة) تمثل الفكر، واللغة تمثل الطرف الآخر، وإذا سلمنا، أن الفكر لا يمكن الإمساك به ما لم يكن متشكلا في لغة، وهو ما أكده الوضعيون، وعلى رأسهم (وايزمان) إن الفيلسوف يتأمل الأشياء عبر منشور اللغة.[63] ويشاركهم (سارتر) في ذلك رغم البون الشاسع بينهما، ويؤكد هو أيضا على أن البحث عن الحقيقة لا يتم إلا باستخدام اللغة كأداة.[64] يبقى السؤال الأهم، هل لدينا وسيلة تقر بها خصائص للفكر تختص به ولا تدين بشيء للتعبير اللغوي؟[65]

ولذلك فإن مشكلة الفلسفة تكمن أساسا في لغتها، وبالتالي إذا أرد الفيلسوف، التخلص من السؤال الفلسفي، فعليه أن لا يبحث عن إجابة له، بل تحليله، بجعل كلماته أكثر وضوحا.[66] وهدف الفلسفة هو

التوضيح، وذلك بإذكاء البصائر كي ترى الأشياء من منظور أوسع لا تعترض سبيله المفاهيم الخاطئة.[67] فالوضعيون يرون أن جزءا كبيرا من المشكلات الفلسفية، يرجع أساسا لمشكلات في استعمال اللغة، لكون اللغة في حقيقتها شفافة، ويمكنها أن تصف العالم بدقة،لو أنها استخدمت كما ينبغي، أي عندما يلتزم المتحدث بقواعدها، فلا يذعن لخيالاته أو تجاوز في وصفه مقاصد فعل الوصف، وهو ما يتوفر في اللغة العلمية.[68]

كما عالجت فلسفة اللغة العلاقة التي تربط اللغة بالعالم، ولعل أبرز من يمكن ذكرهم في هذا السياق هو (فجتنشتين)، الذي يرى أن وظيفة اللغة الأساسية هي وصف العالم الخارجي، والذي يرى أيضا أن هناك تطابقا بين اللغة والعالم أو الواقع الخارجي، فكما تنحل اللغة إلى قضايا، ينحل العالم إلى وقائع، ولهذا السبب نجده بدأ تحليله للغة بتحليل العالم نفسه.[69] ولذلك نجد أن كلمة العالم هي أول المصطلحات استخداما في رسالته، وكأنه كان يقصد من وراء ذلك، أن يقول إن فهم منطق اللغة لا يمكنه أن يتم بمعزل عن فهم منطق العالم، فالعالم على النحو الذي تصور (فجتنشتين) يعد شرطا أساسيا، في سبيل أن تحقق اللغة ماهيتها.[70]

ج- مبررات العلاقة بين الفلسفة والأدب

لابد أن نقر، بأن بعض -إن لم يكن كثير- من الكتابات الفلسفية، تتسم بمناقب أدبية،[71] ومن هنا يبرز أهم الأسئلة التي تطرح في هكذا سياقات، هو لماذا يلجأ الفيلسوف إلى الأدب؟ ولماذا يلجأ الأديب إلى الفلسفة، ما الإضافة التي يحققها الأول؟ وما الثمار التي يجنيها الثاني؟ بمعنى آخر، هل هناك مبررات تستدعي وجود هذه العلاقة فعليا، تبين هذا التاريخ الطويل الحافل بينهما، وكيف تجسدت الأفكار النظرية في مجال التطبيق؟ وبطبيعة الحال تعددت الرؤى وتنوعت الإجابات حول طبيعة هذه العلاقة ومبرراتها، بين مؤيد للأسلوبية ومؤيد للعمق الفكري.

يرى (فاليري) أن الشكل يكلف غاليا، وذلك للدلالة، على أن الأسلوب، قد يكون مساوٍ تماما للمحتوى.[72] كما يذهب (غادامير) إلى أن الكلام الفصيح، دائما يجمع بين معنيين، أنه بلاغي وأنه يقول الحقيقة.[73] وهو ما يبرر به البعض، لجوء الفلاسفة في إغواء القارئ، فعلى الرغم من أن الفلسفة ليست حقلا معرفيا منتميا إلى الأدب، لأن الكتابة الفلسفية و أهميتها، تكمن في اعتبارات أبعد من القيمتين الأدبية والجمالية، إلا أن الفيلسوف قد يعرض أفكاره مستخدما أسلوب الكتاب الأدبية، فتلك مزية تحسب له، وتجعل كتاباته على قدر من الغواية التي تدفع الآخرين لدراسته، غير أن الكتابة الفاتنة، لن تجعل منه فيلسوفا أفضل.[74]

ولقد كان بعض الفلاسفة كتّابا عظاما، والأمثلة الأكثر تعبيرا، أمثال (أفلاطون) و(أوغسطين) و(شوبنهاور) و(نيتشة)، ويمكن الإشارة بدرجة أقل إلى كل من (ديكارت) و(باسكال) و(هيوم) و(روسو)، إضافة إلى (رسل) و(سارتر) (وقد منحا جائزة نوبل في الأدب).[75] وقياسا على ذلك فإن الأسلوب

السردي وحده هو ما قد يدفعك لتفضيل (برجسون) على (كانط).[76] وحين دمج (نيتشة) في الفلسفة وسيلتي تعبير، الكلمة الجامعة والقصيدة، استطاع هذان الشكلان بالذات أن يستتبعا تصورا جديدا للفلسفة، وصورة جديدة للمفكر والفكر.[77] في المقابل هناك فلاسفة ولكنهم كتاب سيئون، أمثال (أرسطو) و(كانط) فرغم مكانهما الفلسفية إلا أنهما لم يملكان أسلوبا مميزا في الكتابة. أما (هيغل) فقد تحول أسلوبه الغامض في الكتابة إلى مثار للسخرية والنقد.[78]

أي أن الأدب، هو أحد الأشكال التعبيرية عن الأفكار الفلسفية، هو أداة بالغة القوة والدلالة، وهو أداة لا غنى عنها في الفلسفة، إذا كانت تطمح للتأثير.[79] وهو ما نجد في نهج الفيلسوف (سيوران)، لأنه يأتي فلسفة، ولكن من نوع خاص، نوع (مقالي – أدبي)، لا يستخدم الحجج فحسب، بل يستخدم أيضًا الوسائل التعبيرية الخطابية لإقناع القارئ.[80] وفي سياقات أخرى، يستخدم الأسلوب الأدبي للتبسيط، إذا ليس بالضرورة أن يكون القارئ ملما بالفلسفة، لكي يفهم الأفكار الوجودية، فقد صاغها فلاسفة أمثال (سارتر) بشكل جذاب في رواياتهم ومسرحياتهم.[81] وبذلك وصلت لآلاف من البشر لا يقرؤون بحوثا فلسفية متخصصة قط.[82] يمكن القول باختصار أن الأسلوب الأدبي الجمالي يجعل النص الأدبي أكثر إغواء وأكثر إقناعا وأكثر بساطة.

وقد يلجأ الفلاسفة للنصوص الأدبية، لجعل أفكارهم أكثر رواجا، فهناك من النصوص سواء كانت أدبية أو حتى نصوص النقد الأدبي، لا تحمل فكرا فلسفيا فحسب، بل وقادرة حتى على الترويج له أيضا.[83] ولعل أشهر الأمثلة هم الفلاسفة الوجوديون، حيث استطاعوا التعبير عن أفكارهم الوجودية في المسرحيات والروايات، تعبيرا ربما أقوى من البحوث الفلسفية، وحملت رواياتهم مثل (الطاعون) و(الغثيان) و(جلسة سرية) إلى آلاف القراء، ولوعيهم بهذه الحقيقة أبرزوا قدراتهم بوصفهم كتابا مبدعين، على نحو ما أبرزهم بوصفهم فلاسفة، أمثال (كامي) و(سارتر) و(مارسيل).[84]

ولقد كان لهذا الرواج، ثمنه الباهظ، فقد كسبوا جمهورا واسعا بفضل كتاباتهم الأدبية في الرواية والمسرح، إلا أن ذلك جعل أفكارهم الفلسفة أكثر عرضة لسوء الفهم.[85] وهو ما أدى إلى فشل الوجودية وفقا لرؤية ولسون حيث عاد روادها إلى الأدب لقد فشلت وجودية (سارتر) و(كامو) في أخذ ثنائية الإنسان بعين الاعتبار، إنهم يحضرون أبطالهم إلى الواقع، الذي يمثل عدوا لا يمكن هزيمته ولابد من التصالح معه، لكونهم لا يتلقون أي عون من البشر أو الدين.[86] وهو أدى كل هذا إلى زقاق اليوم المسدود حيث تلوح الفلسفة و الأدب الآن في أزمة.[87]

يقدم (كاسيرر) رؤية أخرى لتبرير هذه العلاقة، حيث يرى أن الإنسان لم يعد قادرا على مواجهة الحقيقة مباشرة، أو يحدق فيها وجها لوجه، لذلك لا يعالج الأشياء مباشرة، لذلك يغلفها بالأشكال اللغوية والصور الفنية والرموز الأسطورية. [88] فلولا الفن لقتلنا الحقيقة،كما يقول(نيتشة). والجدير بالذكر في هذا السياق، أن قضية الرمزية، لا ترتبط فقط، بتخفيف وطأة الحقيقة، والتقليل من جرعتها، بل تأتي أيضا، في

سياق الحملات المسعورة التي شنتها النظم السياسية بأدواتها الفكرية مثل التشدد الديني أو قمع حرية الفكر، ضد الفلسفة والفكر والحر، وما ترتب على ذلك من موقف مجتمعي، ضد الفلسفة، وهو ما تطلب لغة رمزية يختبئ خلفها الفلاسفة لتمرير أفكارهم.عدم المباشرة للتخفيف أو للخوف.

أما على صعيد الأدب، أو لماذا يلجأ الأدباء إلى الفلسفة، فذلك لأن أقوى القراءات، والأكثر ملائمة للأعمال الأدبية، هي تلك التي تتعامل معها، على أنها إيحاءات فلسفية، من خلال تتبع و إظهار الآثار المترتبة على تعامل تلك الأعمال، مع المعارضات الفلسفية التي تدعمها.[89] فلا قيمة للفلسفة إن لم تلمس الآني واليومي في حياة البشر، كما لا قيمة للعمل الأدبي حين يكون خاليا من المعنى، فالبعد الفلسفي هو الذي يمنح العمل الأدبي الحقيقي ما يحتاجه من فكر وعمق وثقافة، ويسمح له بأن يكون تجربة إنسانية ثرية، تجربة تبدأ من الآني والفردي والعابر، ولكنها تخاطب وتصل إلى الجماعة حيث لا تموت ولا تنتهي.[90]

ثالثا: جدلية علاقة الأدب والفلسفة (من الأسطورة إلى الرواية)

إن العلاقة بين الأدب والفلسفة، أكثر تعقيدا والتباسا، فهما خلال فترة تاريخية طويلة، لم يكونا منفصلين.[91] فالأدب والفلسفة ممتزجان امتزاجا معقدا هكذا كان على الأقل إلى أن أقام التاريخ بينهما نوعا من القسمة الرسمية تقع هذه الفترة في أواخر القرن 18 عندما بدأ لفظ الأدب يستعمل بدلالاته الحديثة.[92] ويكشف التاريخ عن حالة من الندية و الإقصاء بين الفلسفة والأدب، وكأن ما كان لأحدهما أن يحدد هويته إلا على حدود الآخر، وذلك منذ نشوء الفلسفة، التي قدمت نفسها آنذاك بوصفها طريقة جديدة لفهم العالم، تعتمد على السببية والغائية، الذي يحل محل التفسير الأسطوري للعالم الذي يعتمد على المخيلة والبلاغة والأسلوب الشعري. ولقد استمرت هيمنة الخطاب الفلسفي العقلاني على الخطاب الشعري حتى خلال العصور الوسطى، أما في الحقبة الحديثة فقد تسلسل الخطاب الشعري إلى داخل معقل الفلسفة، وذلك حين ارتدى قناع العقلانية، ودخل بصفته شعرا معقلنّاً.[93] يمكن القول بشكل عام بوجود تيارين أساسين، يتبنى الأول التعاضد والتماهي بين الفلسفة والأدب، ويقول الآخر بالتنافر والاختلاف بينهما.

1- الفلسفة والأدب متداخلان متعاضدان

قبل كل شيء لابد من الإشارة إلى أن هناك العديد من السمات المشتركة بين الأدب والفلسفة، تجعل كل منهما يشد عضد الآخر، حتى وإن لم يتفقا في الأسلوب، وأول هذه السمات هي (التمرد) فمن المعروف تاريخيا أن الأدباء كما الفلاسفة، هم الأكثر تمردا والأكثر نقدا للمجتمعات والشعوب والحضارات، (وهذا لا يعني عدم وجود من هم خلاف ذلك، أي من يبررون عادات مجتمعاتهم وحضاراتهم) ولكن بشكل عام، يعتبر الأديب والفيلسوف هما الأكثر تمردا على السائد والعام، والأكثر جرأة في طرح الأسئلة، وفي كشف عيوب المجتمعات والأفكار وفضحها، ولذلك يتسم ما يقولانه عادة

بالغموض، وفي أحسن الأحوال بالانفتاح على قراءات وتأويلات لا حصر لها. وقد يكون هناك تكامل بينهما، فالأدب مثلا يحاول أن يصف لنا الحياة ويشرحها، بينما على الفيلسوف أن يكشف عن مشاكلها وصعابها، ثم في النهاية يحال الأمر إلى العلماء ليبحثوا عن حلول، وهم تحت أنظار الفلاسفة.

أما عن التقارب بين الفلسفة والأدب، والإجابة على السؤال أيهما يحتوي الآخر، أو أيهما، أكثر حاجة إلى الآخر؟ فهناك من يرى أن هناك عوامل أوسع وأشمل، تفرض تحولا مزدوجا، طال الفلسفة كما طال الأدب، و أول هذه المتغيرات هي (الحداثة الغربية)، فإذا كان اليونان كانت لهم الأسبقية في التأكيد على العلاقة بين الجمال والخير، فميزة الحداثة أنها أدت على العلاقة بين الجمال والحقيقة.[94] ولقد عرفت الحركة الثقافية المعاصرة بشكل عام، تحولا كبيرا، وهو ما أطلق عليه (ميشيل سيرس Michel Serres) مصطلح الثقافة الحيوية (bioculture)، حيث طرأت تغيرات كبيرة بسبب التقدم التقني والاقتصادي والعلمي، مما فرض على الكتاب والمفكرين أسلوبا جديدا في التعامل مع الآخر.[95] حيث أصبحت العواطف والمشاعر، مع تقدم الحياة وتعقدها مشبعة بالأفكار، وأضحت بذلك أكثر عقلية، وذلك أمر بالغ العمق، في علاقة الأدب بالفلسفة.[96]

وهذه التغيرات التي طالت الفلسفة والأدب معا، يترتب عليه أن فهم أي منهما مرتبط بفهم الآخر، كما يقترح (كوندرا) حيث أن فهم طبيعة الواقعية الروائية في بداية القرن 18 وما بعدها،يكون ممكنا، إذا ما لجأنا إلى أولئك الذين يحترفون تحليل المفاهيم وهم الفلاسفة؛ وذلك لأن التغيرات التي طرأت على الأدب، كانت مصاحبة بتغييرات طرأت على الفلسفة، فقد كانا يشتركان (الفلسفة و الأدب) في تناول قضية الواقعية، وأيضا الفردانية والهوية.[97] ويؤسس على ذلك، جدلية العلاقة بينهما، فهو يرى أن خطأ الأخطاء، هو التفكير بأن العلاقة بين الفلسفة والأدب تقوم في اتجاه واحد، وأنه ما دام (حرفيو القص) (الأدباء) بحاجة إلى الأفكار، فإنهم لا يستطيعون استعارتها إلا من (حرفيي الأفكار) (الفلاسفة)، ولكن ذلك ليس دقيقا، فقد حدث ذلك لتطور طبيعي للرواية.[98]

فقد تخلت الفلسفة، عن صرامتها (الاسكولائية) التي رافقتها خلال العصور الوسطى وردحا من العصور الحديثة، و حلت محلها الروح الإنسانية، كما أن التغير طال الشعر– أو بالأحرى فهم الشعر– حيث لم يعد مجرد مجموعة من الانفعالات والعواطف، بل أصبح يفهم على أنه يتضمن عقلانية أيضا تسير جنبا إلى جنب مع العاطفة.[99] فقد تخلى الأدب عن لغته الكلاسيكية، وأصبح يستخدم اللغة المحكية، ليس على سبيل الإضحاك، بل لكونها مواضيع جوهرية.[100]

ولقد سعى الأدب منذ قرن، إلى تبديل مظهره، ليكون بلا ميراث، إذ لم يعد يعتبر الأدب كما يتصوره (رولان بارت)، صيغة تداول متميزة اجتماعيا، بل ينظر إليه على اعتباره لغة متماسكة عميقة حافلة بالأسرار معروضة وكأنها حلم وتهديد بآن واحد، ولهذا السبب، أصبح الشكل الأدبي، يثير المشاعر الوجودية المرتبطة بخواء كل المواضيع: مثل الغرابة والألفة والنفور والمجاملة.[101] بشكل عام تغير معنى

الأدب في فرنسا (مثلا) تدريجيا، خلال القرن الثامن عشر، و بصورة نهاية في مطلع القرن التاسع عشر، فلم يعد نخبويا بل أصبح فنيا، فأصبح يضم كل الكتابات الفنية، وأصبح الذوق والانفعال أمورا أساسية بحيث صار العقل تابعا للشغف.[102]

أ-اللغة البيضاء (صعوبة الفصل بين الفلسفة والأدب)

يرى العديد من الفلاسفة والمفكرين، أن التقارب بين الفلسفة والأدب، يصل إلى حد الامتزاج والتماهي، لدرجة يصعب الفصل بينهما، أو تمييز أحدهما عن الآخر. فقد تداخلت الفلسفة مع الأدب، بل إن أجناس الأدب نفسها تداخلت فيما بينها.[103] وأصبح الأدب في الحقبة المعاصرة أكثر تعقيدا، فمن حيث المحتوى أصبح فلسفيا، ومن حيث الأسلوب أصبح الكتاب أكثر شغفا بالتجريب.[104] ولذلك قيل لابد لكل أدب أصيل،أن يكون مسكونا بالفلسفة، كما لو كان مسكونا بشبح لا يمكن طرده.[105]

وبناء عليه، فإن الخطاب الأدبي الصرف، والخطاب الفلسفي الصرف، لا وجود لهما، ولا يمكن أن نجد إلا خطابات ممتزجة.[106] الصرح الشعري الذي شيده (فوكو) تمجيدا لـ(روسيل) في نص لا ينتمي إلى الأدب ولا إلى الفلسفة، لأنه في منتصف الطريق بينهما، وهو لا يختلف عن محاولة (هيدجر) لقراءة شعر (هولدرين).[107] في القراءات التي تؤكد وتنكر الاختلاف بين الفلسفة والأدب، يوضح التفكيك اعتماد الفلسفة الذي لا مفر منه على المجازات والمخططات. يُنظر إلى الفلسفة الأدبية على أنها تخرب ادعاءاتها المعرفية للعقلانية. في الوقت نفسه، يستخدم النقاد كلمات مثل الصرامة، و التصحيح و الصواب والحقيقة والبصيرة.[108]

ويذهب (دريدا) في اتجاه أخر، معتبرا أن المشكلة الأهم، هي كيف نحدد أصلا طبيعة اللغة الفلسفية؟ هل هي (اللغة الطبيعية) أم مزيج من اللغات الأخرى مثل اليونانية واللاتينية والألمانية؟[109] وهو بذلك يضع صعوبة لينفي من خلالها وجود لغة فلسفية، وفي المقابل يرى أن الشعر والفلسفة وجهان لعملة واحدة (اللغة الملغزة) وفي ذات الوقت كانت تلك اللغة هي الرحم التي ولدا منه.[110] وحاول أن يثبت باستخدام استراتجيات بلاغية، وخاصة في كتابه (بطاقة بريدية) the post card هو تنبيه القارئ، لضبابية الحدود بين حقول المعرفة، كما هو الحال بالنسبة للفلسفة والأدب، بل ومن المستحيل الفصل بشكل صارم بين البعد الشعري للنص وبين المحتوى.[111] وبالتالي استحالة إرجاع لغات الفلسفة (وكذلك العلم) إلى الغايات المعرفية وحدها، على نحو يحذف منها كل مكون أدبي، فالتفكيكية توحي بهشاشة هذا الفرق بين الفلسفة والأدب، فالنص تختفي فيه الفروق والأجناس.[112]

ويؤكد أيضا على أن كل المحاولات لفصل الفلسفة عن الأدب، وتأكيد كون الفلسفة خطابا حول الحقيقة منزه عن أهواء الكتابة، ستصطدم –دون أن تتوقع ذلك– بواقع تشكيل النص الفلسفي، لأن اللغة الفلسفية هي لغة مجازية أساسا، وهو ما يؤكد عجز النص الفلسفي عن التعبير عن ذاته، حيث يظل في حاجة دائمة للمجاز، لكي يظهر جليا واضحا، فالفلسفة تكشف عن قدرتها في الإفصاح من خلال

الاستعارة.[113] مما يعني أن علاقة الفلسفة بالمجاز متينة، ولكن حضور المجاز في الفلسفة، أكثر من حضور الفلسفة في المجاز.[114]

ويميز (دريدا) بين الفلسفة التي تنقل (شفاهة) وبالتالي يمكن درء سوء الفهم، وبين النصوص المكتوبة، لأن الأفكار هي ميدان الفلسفة، وهناك أنساق (لغوية) وسيطة، يتم عبرها نقل هذه الأفكار وتبادلها، والكلام نسق تتلاشى دواله حين نطقها، فلا تتخذ الدوال شكلا ملموسا، ومن ثم بمقدور المتكلم إزالة أي التباسات قد تطرأ، لضمن أن أفكاره نقلت أو تم إيصالها، أما في الكتابة فلا تتلاشى الهيئات الوسيطة؛ إذ تبقى الدوال، لأن الكتابة تتقدم اللغة في سلسلة من الإشارات المادية التي تمارس عملها في غياب المتكلم، وفي الأشكال البلاغية التي تتمتع بفنية عالية تتسم تلك الإشارات بدرجة عالية من الغموض والتشابك.إن ما كتب بدءا من أفلاطون، يفيد بأن الفلسفة يجب أن تشجب الكتابة، ويجب أن تعرف نفسها ضد الكتابة (اللغة) وإدعاء الفلاسفة بأن المنطق والعقل والحقيقة تشيد عبارات الخطاب الفلسفي، ولا تشيده اللغة التي يعبرون بها، يدفع هذا الخطاب بتعريف نفسه بمعزل عن الكتابة.[115] وبالتالي، تنبذ الفلسفة (الدال signifier) بالطريقة نفسها التي تنبذ بها الكتابة، وهو نبذ تؤسس به الفلسفة نفسها فرعا معرفيا منضبطا غير متأثر بمكائد الكلمات وما تنطوي عليه من علاقات احتمالية، و هكذا تحدد الفلسفة نفسها بكونها تتجاوز الكتابة وتعلو عليها، كما تسعى إلى تحرير نفسها من تلك المشاكل التي تنطوي عليها الكتابة.[116]

ولذلك يرى (بارت) أن التصنيف بالنسبة لنصوص الأدب والفلسفة لم يعد ممكنا، لأن الكتابة أصبحت تجمع كل الأجناس الفلسفية والأدبية، أو ما يطلق عليها وصف الكتابة (البريئة) أو يصفها أحيانا أخرى بالكتابة (المحايدة)، والتي تكتب على حد وصفه أيضا باللغة (البيضاء) وتعد رواية الغريب (لكامو) ليست أبرز أمثلها فحسب، بل وبداية تدشينها أيضا.و لقد اختصرت الكتابة حينئذ إلى نوع من الصيغة السالبة، تتهدم فيها الخصائص الاجتماعية، أو الأسطورية للغة، لفائدة حالة محايدة، و حالة عطالة للشكل، وبذلك يحتفظ الفكر بكامل مسئوليته، ولا يستمدها من التزامه الإضافي بالشكل.[117]

ب- الأدب أولا:

على الرغم من الاتفاق العام بين العديد من المدارس والفلاسفة، على أن هناك وحدة عضوية بين الأدب والفلسفة، وأنهما متكاملان، إلا أن ذلك لم يكن الاختلاف فيما بينهم، على أيهما أكثر أهمية، وأيهما يأتي أولا؟ فهل الأدب له الأسبقية، وتتبعه الفلسفة؟ أم العكس؟ حيث يلحق الأدب بالفلسفة؟ الأدب الفلسفي، هو أدب أولا، ثم هو فلسفي، فهو يلتزم بمعايير الأدب رواية ومسرحا وشعرا، ولكنه أيضا يحمل بعدا فلسفيا، ويبقى مع ذلك فنا جميلا، يحمل من الفلسفة تلك الـ(لماذا) المقلقة هو يحمل من الفلسفة آفاقها وقضاياها وتحدياتها، إنه يتخذ الإنسان موضوعا له، وهو لذلك فلسفي، بينما يبقى له من الفن جماليته وتفرده وأصالته.[118]

ويمكن القول أن (فاليري) يمثل الاتجاه القائل بأسبقية الأدب، فهو يرى أن الفلسفة بوصفها محددة بنتاجها، هي بكل موضوعية فرع من فروع الأدب، و نحن مضطرون إلى ردها لموضوع لا يبعد عن الشعر.[119] بل وصل الأمر إلى القول أن الفلسفة ليست سوى الأدب.[120] ويتبعه في (ليتشه) حين يعتبر أن انهمك الفيلسوف (ليفيناس) بالقضايا الأخلاقية، التي تكشفت له بعد القراءة النهمة لأعمال (دوستوفيسكي) و(تولستوي) و(بوشكين) و(غوغول)، وبالتالي كانت قراءة مؤلفات الكتاب الروس الكبار، تحضيرا جيدا لقراءة (أفلاطون) و(كانط).[121] والأسبقية هنا أسبقية منطقية، ولا تعتمد على الأفضلية.

وأكثر الأمثلة وضوحا، في أسبقية الأدب وتبعية الفلسفة له، هو الفلسفة الوجودية، إن الأدب الوجودي الغارق في التمزق والخوف والغثيان واللاحقيقة هو في الحقيقة الخلفية الأساسية للفلسفة الوجودية.[122] والنماذج الوجودية الكبرى التي يحللها هيدجر في كتابه الوجود والزمان، معتبرا أن الفلسفة الأوروبية السابقة كلها قد أهملتها، إنما تم الكشف عنها وبيانها بواسطة 4 قرون من الرواية الأوروبية، فقد اكتشفت الرواية بمنطقها وطريقتها كل جوانب الوجود.[123] فرواية (الرجل الذي لا خصال له) لـ(روبرت موزيل) موسوعة وجودية فريدة لعصرها.[124]

ومرجع ذلك، إلى أن القضايا الوجودية ذات الطابع اليومي والمباشر، لم يكن ممكنا التعبير عنها بلغة فلسفية متصلبة، وهو ما دفع البعض إلى القول، إن الوجودية الحقيقية لا يمكن أن يعبر عنها باللغة المنطقية العادية، ويمكن التعبير عنها فقط في المسرح والشعر.[125] وقد أكد (كولن ويلسون)، أنه لا يوجد فيلسوف مؤهل للقيام بعمله ما لم يكن روائيًا أيضًا.[126] وإن جوهر الوجودية هو ما يدركه الفيلسوف الشاعر بفطرته،[127] فالوجودي، هو الفيلسوف الفنان، أما طريقة التعبير عنده، فهي القصة أو المسرحية.[128] وهو ما يفهم منه أن الوجودية مدينة في وجودها إلى تطور الأدب الوجودي، والارتقاء باللغة اليومية، إذ يرى (ميلان كوندرا) أن فلاسفة الوجودية منحوا كلمات الحياة اليومية مثل (قلق وثرثرة) دلالات فلسفية.[129]

وكل ذلك يؤكده (كامو) لكونه يرى أن الروائي الروسي (ديستوفسكي) هو معلمه الأول، وأن روايته (الشياطين) The Possessed من أهم أربع كتب، كان لها تأثيرها البالغ عليه، بل هناك من يزيد على ذلك، بأن فهمنا لـ(ديستوفسكي) يمكن أن يكون مفتاحا لفهم التيارات العقلانية والوجودية الحديثة، ولولا النزعة الدينية عنده (وهو يشبه ما حدث مع كيركيغارد) لكان له تأثير أكبر، إلا أن تغير البيئة ومواجهة العلمانية أعاقت استمرارية وعمق ذلك التأثير.[130] وذلك ما يبرر ما يسمع كثيرا، عن ذلك الوصف الذي يوصف به (دستوفسكي)، كونه أعظم كاتب بين الكتاب الوجوديين، وليس من العامة فقط بل من أنصار الوجودية أنفسهم.[131]

ج- الفلسفة أولا:

يرى (ريشنباخ) أن هناك علاقة بين الفلسفة والأدب، ولكنها ترتكز على أسبقية الفلسفة، لكونه المعنية بطرح الأسئلة، والأدب معني بالإجابة، لذلك نجد العقل الفلسفي طوال تاريخ الفلسفة، مقترنا بخيال الشاعر، فحيثما كان الفيلسوف يسأل كان الشاعر هو الذي يجيب.[132] في حين يعتبر (كولينوود) أن العلم والفن، ليست مجرد أخطاء أشكال للتعبير الروحي والثقافي، بل هي (أخطاء فلسفية) أو بمعنى أدق (أشكال فلسفية قاصرة) وذلك بسبب عدم (اكتمالها) وقد يتطور الأمر إلى مرحلة موت الفن كما عند (هيغل)، بعد أن يندمج بالفلسفة. [133] مما يفهم من ذلك أن الفن (بما في ذلك الأدب) هو مرحلة أولى من الفلسفة، هو فلسفة لم تتضح بعد.

وهناك دراسات حاولت أن تسير في هذا السياق، مؤكدة على تأثر الأدباء بأفكار الفلاسفة، يمك أن نذكر منها،رواية (سبريديون) لـ(جورج صاند) وأيضا نصوص (كينو) النقدية، التي يبدو واضحا أنه تأثر فيها بـ(هيغل).[134] هناك شعراء تأثروا بالمدارس والتيارات الفلسفية، يشير الشاعر الفرنسية (مالارميه) صراحة لذلك، بالقول، أن (هيغل) هو جبار الروح البشرية، ولمن يطالع نصوص (مالارميه) يكتشف سطوة فكر (هيغل) عليه، بل إن (الهيغلية) هي الرابط السري بين نصوصه.[135]

ونجد أيضا أن هناك أيضا أعمال أدبية ذات طابع فلسفي، على سبيل المثال يبدو (تولستوي) متأثرا بالأفكار الفلسفية، حين يضم لروايته الشهيرة (الحرب والسلام) ملحقا يصرح فيه أنه حاول التعبير عن فلسفة محددة في التأريخ، وكذلك نجد (بروست) في روايته (البحث عن الزمن الضائع) يتناول قضايا الزمن، وهي قضايا فلسفية أصيلة، إضافة إلى رواية (ترسترام شاندي) للكاتب (لورنس ستيرن) والذي صرح بأنه كتبها وهو تحت تأثير نظرية لوك عن الأفكار، وثمة الكثير من الروايات العظيمة التي تمثل الأفكار الفلسفية هيكلها الأصيل.[136] كما تناول تحت عنوان (أدب الأعماق) رواية (البؤساء) لـ(هوغو) معتبرا إياها ليست فقط رواية الشعب، بل إن الشعب هو من كتبها وأيضا كتبت لأجله، لكونها تبحث في بنى المجتمع متخلية عن الأبعاد النفسية.[137] كما كانت أعمال فولتير الأدبية بشيرا بأزمنة جديدة، حيث أضفى على مآسيه مضمونا فلسفيا.[138]

2- الفلسفة والأدب مختلفان متعارضان

خلافا لوجهة النظر السابقة، كان هناك من ينادون بفصل الفلسفة عن الأدب، ليس لكونهما مختلفان فقط، بل إن الاتصال بينهما يضر بهما أيضا، وهناك الكثير من نقاط الاختلاف التي تميز بين الفلسفة والأدب، تتسم الفلسفة بالموضوعية والابتعاد عن الذاتية، بينما يتسم الأدب بالذاتية، إنه أكثر قدرة في التعبير عن المشاعر الإنسانية، وهو ما دفع (أريس) للقول بأن من الممتع أن يكون المرء فنانا على أن يكون فيلسوفا، لكون الفن يغذي العاطفة بينما الفلسفة تحاول أن تكبح جماحها.[139]

إضافة إلى أن هناك فارق في المناهج، فمناهج الفلسفة أكثر دقة والتزاما، بينما الأدب أكثر مرونة، ولذلك فإن أصالة التفكير الفلسفي، يحددها مدى بعده عن العنصر الأدبي، والتزامه بالمناهج

الفكرية الصارمة، لكون العنصر الأدبي يمثل نقطة ضعف إذا تسلسل إليها.[140] كما أن الأدب يهتم بتنوع الحياة الثري، بينما تميل الفلسفة إلى التجريد لكي تصوغ قوانين عامة.[141] والكتابة الفلسفية تميل غالبا إلى الدقة، ومحددة المعاني، بينما أهم مزايا الكتابة الأدبية، هي الاستعارات والمجاز، مما يطلق العنان للدلالة، ولذلك يميل الأدب إلى الغموض، ويمعن الأدباء في إخفاء المعاني حتى في بطونهم، بينما تصر الفلسفة على الوضوح ويكابد الفلاسفة من أجل التوضيح

كل ذلك ذهب بالبعض إلى القول، بعدم وجود أي دور للفلسفة في الأدب، وحتى أولئك الذين يتحدثون عن فلسفة (تولستوي) فهو محض حديث عابث يصح إدراجه في سخف الكلام، ويعد أيضا (برنارد شو) مثالا مخيفا للكاتب الذي يتوهم أن لديه فلسفة، و من المحاسن أنها لم تؤثر على مسرحياته. فالبون شاسع بين الفلسفة والأدب وهو ما يعبر عنه (أليوت) بوضوح حين ينفي أن يكون من مهام الشاعر أن يفكر، كما ليس باستطاعة (شكسبير) أو (دانتي) أن يجترحا التفكير.[142]

وفي الأساس لا حاجة لكل منهما للآخر، فالفلسفة (الحكمة) أو (الحق) ليست في حاجة إلى البلاغة والأسلوب الأدبي، فلا يضر الحق أن يكون قبيحا وليس هناك ضرورة للمزج بين الحق والجمال.[143] ولذلك نجد فيلسوفا بحجم (كانط) يرى أن شيوع مثل هذا النمط من الكتابة (الفلسفة الشعرية) هو دليل على وجود شعراء زائفين، وأن ذلك قد يؤدي بطبيعة الحال إلى موت الفلسفة، بل يتمادى كانط في نقده وسخريته إلى حد اعتبار أن كتابة الفلسفة بأسلوب شعري هو يشبه كتابة دفاتر التجار بأبيات شعرية.[144] ولعل كانط يشير هنا إلى أن كل فرع معرفي أو طريقة تفكير له أسلوبه الخاص فكما للشعر أسلوبه المجازي، للفلسفة أسلوبها الرصين، وللتجارة لغة الأرقام.

خاتمة (الفلسفة والأدب في الثقافة العربية)

يمكن القول بشكل عام، أن التغيرات الكبرى والجذرية التي طرأت على الأدب الغربي(أولا) ولكن ببطء، و(لحقت) به الفلسفة، ولكن بوتيرة أسرع، كان لها التأثير الأكثر وضوحا، على علاقة الفلسفة والأدب، وهي علاقة ليست حكرا على الفلسفة والأدب، بل تأثير التغيرات طال كل أشكال المعرفة فهناك علاقة بين الأدب والعلوم الإنسانية مثل علم الاجتماع وعلم النفس، بل والعلوم التطبيقية مثل البيولوجيا، كما دخل الفلسفة في علاقات ترتفع وتنخفض وتيرتها بين الحين والآخر، مثل علم النفس والاجتماع والفيزياء وغيرها.

هذا إضافة إلى أن مفهوم الأدب ومفهوم الفلسفة، مفهومان متغيران أصلا، فما يمكن أن يعد فلسفة في حقبة ما قد لا يعد كذلك في حقبة أخرى، ولعل الفكر الشرقي القديم وفلسفة العصور الوسطى خير مثال على ذلك، ولا تستثنى من ذلك الفلسفات المعاصرة التي تصارعت فيما بينها بين وضعية ومثالية، تقصي بعضها بعضا من مجال الفلسفة، والأمر ذاته ينطبق على الأدب، حيث تتغير معاييره، وتتبدل وظيفته، من عصر لآخر، وليس أدل على ذلك من إشكالية الرمزية والحداثة، كقضيتين جوهريتين،

يقسمان تاريخ الأدب ومدارسه. أما النقد الأدبي، فلابد من التأكيد على أن الأسبقية للأدب في الظهور على ميدان الحضارة الإنسانية، ولكن قراءة الأدب بوصفه فلسفة، كان متأخرا، وما كان له أن يوجد لولا المرحلة المتقدمة التي وصلت إليها الفلسفة وتطور مناهجها وتوسع وتعدد اهتماماتها.

ويبقى الحديث عن صلة الأدب بالفلسفة في ثقافتنا العربية، أمرا تحول دونه معوقات كثيرة، فلا يخفى على أحد، السمعة السيئة التي تحظى بها الفلسفة، في البلدان العربية الإسلامية، والتي أسست على مواقف تيارات وفتاوى بعض التيارات والفقهاء، بدءا من الغزالي مرورا بان تيمية وانتهاء بالتيار السلفي في شكله المعاصر، وهو وضع جعل من الفلسفة محل اتهام، ومحل عزلة لا يرغب أحد في أن يدعي وصلا بها، سواء العلوم الإنسانية، أو الأدب بشكل خاص.

دون أن يعني ذلك حدوث قطيعة كاملة، لأن هناك الكثير من التقارب والصلات، وإن كانت ليست بذات العمق الذي حدث في الفكر الغربي، سواء بسبب وضع الفلسفة كما أشرت آنفا، أو لعدم تعرضهما لذات المتغيرات التي تعرض لها الفكر الغربي، وعلى رأسها شيوع النقد الأدبي والفلسفة النقدية، مما أفسح المجال لسيطرة مدارس التراث، وتقديم السابق على اللاحق، وهو ما تسبب في حل شلل وجمود عام في الأدب.

في المجمل استمر الأدبي في الثقافة العربية له الكلمة العليا، منفردا بمكانته، محافظا على شكله التقليدي، دون حدوث تجديد حقيقي، أو تطورات متكررة، واستمرت الفلسفة على حالها، تمثل في أحسن الأحوال علم الكلام، والإشكاليات ذات الطابع الفقهي والمذهبي، وهي بطبيعة الحال منزوية في الزاوية، لا تؤدي أي دور يذكر ولا تتماهى مع أي ضرب من ضروب المعرفة.

الهوامش:

1. فريس، إيمانويل& موراليس، برنار، قضايا أدبية عامة، (ت) لطفي زيتوني، المجلس الوطني الثقافة، الكويت1990، ص 64
2. عبدالباري، ماهر شعبان، التذوق الأدبي، دار الفكر، عمّان 2009، ص ص16-19
3. ماشيري، بيار، بمَّ يفكر الأدب؟ تطبيقات في الفلسفة الأدبية، (ت) جوزيف شريم، المنظمة العربية للترجمة، بيروت 2009، ص 11
4. يقطين، سعيد، الفكر الأدبي العربي، دار الأمان، الرباط2014، ص 27
5. طودوروف، تزفيطان، الأدب في خطر، (ت) عبدالكبير الشرقاوي، توبقال للنشر، الدار البيضاء2007، ص 45
6. هازار، بول، أزمة الوعي الأوروبي،(ت) يوسف عاصي،المنظمة العربية للترجمة، بيروت2009، ص 415
7. عبدالباري، ماهر شعبان، التذوق الأدبي، مرجع سابق، ص 16
8. وليك، رنيه& وآرن، أوستن، نظرية الأدب، (ت) عادل سلامة، دار المريخ، الرياض 1992، ص ص 32-36
9. شيا، محمد شفيق، في الأدب الفلسفي، المؤسسة الجامعية، القاهرة 2009، ص 57
10. Maurice Muhatia Makumba , Introduction to Philosophy (Philosophy series), Paulines Publications Africa2005, p 26

11. رسل، برتراند، تاريخ الفلسفة الغربية (ج1)، (ت) زكي نجيب محمود، الهيأة المصرية للكتاب،القاهرة 2010 ، ص 13
12. رسل،برتراند، مشكلات الفلسفة، (ت) سمير عبدة، دار التكوين، دمشق 2016 ، ص 171
13. وايزمان، فريدرك،8520/(آخرون)، كيف يرى الوضعيون الفلسفة،(ت) نجيب الحصادي،دار الآفاق، الرباط1994، ص ص 89-92
14. بوبر،كارل، بحثا عن عالم أفضل، (ت) أحمد مستجير، هيأة الكتاب، القاهرة 1999، ص 225
15. أفايه، محمد نور الدين، في النقد الفلسفي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2014، ص 205
16. أيرس، مردوخ& براين ماغي، نزهة فلسفية في غابة الأدب، (ت) لطفية الدليمي، دار المدى، بغداد 2018، ص9
17. Chen,Melvin, Philosophy and Literature: Problems of aPhilosophical Subdiscipline,Philosophy and Literature, Volume 41, Number 2, October 2017 ,p 472
18. نيتشة، فريدريك، إنسان مفرط في إنسانيته (ج1)، (ت) محمد الناجي، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء 2002، ص20
19. ريكمان، هـ.ب. منهج جديد للدراسات الإنسانية، ت. علي عبدالمعطي.علي محمد علي، مكتبة مكاوي، بيروت 1979 ، ص 176
20. بسيوني، كمال، في الأدب اليوناني،مطبعة النهضة المصرية ، القاهرة1990، ص 49
21. عوض، رياض، مقدمات في فلسفة الفن، جروس برس، طرابلس1994، ص 72
22. عبدالبديع، لطفي، ميتافيزيقا اللغة،الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة1997، ص 6
23. أفايه، محمد نور الدين، في النقد الفلسفي المعاصر، مرجع سابق، ص 206
24. شيا، محمد شفيق، في الأدب الفلسفي، مرجع سابق، ص ص 5، 6
25. أفايه، محمد نور الدين، في النقد الفلسفي المعاصر، مرجع سابق، ص 206
26. الفقرة (607) في كتابة الجمهورية لأفلاطون
27. أفلاطون، الجمهورية، (ت) فؤاد زكريا، دار الوفاء، الإسكندرية 2004، ص ص518 -519
28. ت، رولان، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، (ت) عمر أوكان، إفريقيا الشرق، الجزائر1994، ص 17
29. أفلاطون، الجمهورية، مرجع سابق ص 160
30. الجهاد، هلال، فلسفة الشعر الجاهلي،دار المدى، دمشق2001، ص 7
31. "والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ" (سورة الشعراء-الآية 26)
32. صحيح البخاري (6145)
33. أنظر:هدارة، محمد مصطفى، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني هجري، دار المعارف، القاهرة1963
34. شيا، محمد شفيق، في الأدب الفلسفي، مرجع سابق، ص 149
35. المعري، أبو العلاء، رسالة الغفران، مؤسسة هنداوي، القاهرة 2012، ص 164
36. بوملحم، علي، المناحي الفلسفية عند الجاحظ، دار الطليعة، بيروت، 1980، ص 7
37. حرب، علي، هكذا أقرأ ما بعد التفكيك،المؤسسة العربية للنشر، بيروت، 2005، ص 163
38. عصفور، جابر، استعادة الماضي،الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة2001، ص 16
39. برهييه، إميل، تاريخ الفلسفة،(ج 3)، (ت) جورج طرابيشي،دار الطليعة، بيروت، 1983، ص 49

40. الدحيات، عيد، النظرية النقدية الغربية، المؤسسة العربية للنشر، بيروت 2007، ص ص143-147
41. عوض، رياض، مقدمات في فلسفة الفن، مرجع سابق، ص 73
42. وليك، رنيه& وآرن، أوستن، نظرية الأدب، مرجع سابق، ص 33
43. ماركيه، جان فرانسوا، مرايا الهوية الأدب المسكون بالفلسفة،(ت) كاميل داغر، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2005، ص22
44. السابق، ص 118
45. ويلسون،كولن، سقوط الحضارة، (ت) أنيس زكي حسن ، دار الآداب، بيروت 1971، ص ص303، 304
46. شيا، محمد شفيق، في الأدب الفلسفي، مرجع سابق، ص 212
47. السابق، ص ص274، 275
48. أفايه، محمد نور الدين، في النقد الفلسفي المعاصر، مرجع سابق، ص 207
49. يقطين، سعيد، الفكر الأدبي العربي، مرجع سابق، ص ص53-55
50. غولدمان، لويس،(آخرون)،البنيوية التكوينية والنقد الأدبي،(ت) محمد سبيلا،مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت 1986، ص 9
51. كروتشه، بندتو، المجمل في فلسفة الفن،(ت) سامي الدروبي، دار الفكر العربي، القاهرة1947، ص 16
52. المسدي، عبدالسلام، الأدب و خطاب النقد، دار الكتاب الجديد، بيروت2004، ص 16
53. إبراهيم، زكريا، فلسفة الفن في الفكر المعاصر،مكتبة مصر، القاهرة 1988، ص 10
54. Chen,Melvin, Philosophy and Literature: Problems of aPhilosophical Subdiscipline,Philosophy and Literature, Volume 41, Number 2, October 2017 ,p 475
55. عبدالعزيز حمودة، المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيكية، دار الآداب، بيروت 1971، ص 113
56. ماشيري، بيار، بمَّ يفكر الأدب؟ تطبيقات في الفلسفة الأدبية، مرجع سابق، ص 12
57. عبدالعزيز حمودة، المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيكية، مرجع سابق، ص 113
58. دريدا، جاك،(آخرون)، مدخل إلى التفكيك،(ت) حسام نايل،الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة2012، ص 163
59. السابق، ص 181
60. نوريس، كريستوفر، التفكيكية النظرية و الممارسة، (ت) صبري محمد، دار المريخ، الرياض 1989، ص 61
61. ماغي ، براين (محررا)، رجال الفكر، (ت) نجيب الحصادي، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي1998 ، ص ص 342- 344
62. عمران، عبد الله علي، البنيوية ودورها في ترسيخ العلاقة بين اللغة والمقدس،مجلة جامعة صبراتة،المجلد 4، العدد2، 2020، ص 36
63. وايزمان، فريدرك، (آخرون)، كيف يرى الوضعيون الفلسفة، مرجع سابق، ص 72
64. سارتر، جان بول، ما الأدب،(ت) محمد غنيمي، نهضة مصر ، القاهرة 1990، ص 9
65. دريدا، جاك، هوامش الفلسفة،(ت) منى طلبة،دار التنوير، بيروت2019، ص 245
66. وايزمان، فريدرك، (آخرون)، كيف يرى الوضعيون الفلسفة، مرجع سابق، ص 59
67. السابق، ص 74
68. أنظر: الحصادي، نجيب، قضايا فلسفية،الدار الجماهيرية، مصراتة2004، ص 37 و ما بعدها
69. إسلام، عزمي، لدفيج فجتنشتين، دار المعارف، القاهرة د.ت ، ص ص 81 ، 82

70. حمود، جمال، فلسفة اللغة عند لودفيغ فتغنشتاين، منشورات الاختلاف، الجزائر (د.ت) ، ص 122
71. تد، هوندرتش، دليل أكسفورد الفلسفي ،(ت) نجيب الحصادي، المركز الوطني للبحث و التطوير، بنغازي 2002، ص 38
72. بارت، رولان، الكتابة في درجة الصفر،(ت) محمد نديم، مركز الإنماء الحضاري، الرباط 2002، ص 81
73. غادامير، هانز جورج،الحقيقة و المنهج، (ت) حسن كاظم، علي صالح، دار أويا، طرابلس 2007، ص 69
74. أيرس مردوخ& براين ماغي، نزهة فلسفية في غابة الأدب، مرجع سابق، ص 20
75. السابق، ص 19
76. وليك، رنيه& وآرن، أوستن، نظرية الأدب، مرجع سابق، ص 34
77. دولوز، جيل، نيتشة،(ت) أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية، القاهرة1998، ص 19
78. أيرس مردوخ& براين ماغي، نزهة فلسفية في غابة الأدب، مرجع سابق، ص 19
79. شيا، محمد شفيق، في الأدب الفلسفي، مرجع سابق، ص 112
80. Dobre,Marius,HOW TO BUILD AN 'ANTI-THEOLOGY THE CASE OF EMIL CIORAN,European Journal of Science and Theology, September 2011, Vol.7, No.3, p 47
81. أفايه، محمد نور الدين، في النقد الفلسفي المعاصر، مرجع سابق، ص 207
82. ماكوري، جون، الوجودية، (ت) إمام عبدالفتاح إمام، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت 1990، ص 284
83. ماشيري، بيار، بمَّ يفكر الأدب؟ تطبيقات في الفلسفة الأدبية، مرجع سابق، ص 98
84. ماكوري، جون، الوجودية، مرجع سابق، ص 284
85. بوشنسكي، أ.م، الفلسفة المعاصرة في أوروبا، (ت) عزت قرني، المجلس الوطني للثقافة، الكويت1990، ص 209
86. Wilson, Colin, The stature of man, Greenwood Press , New York 1968 ,p 147
87. ويلسون،كولن، المعقول واللامعقول في الأدب الحديث، (ت) أنيس زكي حسين، دار الأدب للملايين، بيروت 1978، ص19
88. المحداوي، علي(محررا)، الفلسفة الغربية المعاصرة (ج 1)، دار الأمان، الرباط2013، ص 195
89. Florentsen,Peter,Deconstruction,Philosophy and Literature, Readings of Jacques Derrida,Orbis Litterurum 51:1996, p 89
90. شيا، محمد شفيق، في الأدب الفلسفي، مرجع سابق، ص ص 5، 6
91. ماشيري، بيار، بمَّ يفكر الأدب؟ تطبيقات في الفلسفة الأدبية، مرجع سابق، ص 11
92. السابق، ص 22
93. النبواني، خلدون، نصوص أدبفلسفية، هارتمان/كتابوك، باريس2017، ص ص32-34
94. ماركيه، جان فرانسوا، مرايا الهوية الأدب المسكون بالفلسفة، مرجع سابق، ص 383
95. Desblache ,Lucile, Monstrosity and the Posthuman inPhilosophy and Literature Today,Comparative Critical Studies,Edinburgh University Press , New York 2012 ,p 246
96. شيا، محمد شفيق، في الأدب الفلسفي، مرجع سابق، ص 107
97. بارت، رولان (آخرون)، الأدب والواقع، (ت) عبدالجليل الأزدي& محمد معتصم، منشورات الاختلاف، الجزائر1992، ص ص 11-18

98. كونديرا، ميلان، ثلاثية حول الرواية،(ت) بدر الدين عرودكي، المشروع القومي للترجمة، القاهرة 2007، ص 468
99. الجهاد، هلال، فلسفة الشعر الجاهلي،مرجع سابق، ص 8
100. بارت، رولان، الكتابة في درجة الصفر، مرجع سابق، ص 107
101. السابق، ص 8
102. فريس، إيمانويل& مورااليس، برنار، قضايا أدبية عامة، مرجع سابق، ص 67
103. ماشيري، بيار، بمَّ يفكر الأدب؟ تطبيقات في الفلسفة الأدبية، مرجع سابق، ص 12
104. تريشيه، الأدب الفرنسي في القرن العشرين، (ت) حامد طاهر، مطابع العمرانية، القاهرة(د.ت)، ص 15
105. ماركيه، جان فرانسوا، مرايا الهوية الأدب المسكون بالفلسفة، مرجع سابق، ص 20
106. ماشيري، بيار، بمَّ يفكر الأدب؟ تطبيقات في الفلسفة الأدبية، مرجع سابق، ص 25
107. السابق، ص 339
108. Florentsen,Peter,Deconstruction,Philosophy and Literature, Readings of Jacques Derrida,Orbis Litterurum 51:1996, p 88
109. دريدا، جاك، هوامش الفلسفة، مرجع سابق، ص 241
110. ماركيه، جان فرانسوا، مرايا الهوية الأدب المسكون بالفلسفة، مرجع سابق، ص 20
111. ليتشه، جون، خمسون مفكرا أساسيا معاصرا، (ت) فاتن البستاني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت 2008، ص226.
112. هبرماس، القول الفلسفي للحداثة، (ت) فاطمة الجيوشي ، وزارة الثقافة السورية، دمشق1995، ص 293
113. بلكفيف، سمير (محررا)، الفلسفة الفرنسية المعاصرة، كلمة للنشر و التوزيع، بيروت 2015، ص 307
114. السابق، ص 315
115. دريدا، جاك،(آخرون)، مدخل إلى التفكيك، مرجع سابق، ص 263
116. السابق، ص 264
117. بارت، رولان، الكتابة في درجة الصفر، مرجع سابق، ص ص 100، 101
118. شيا، محمد شفيق، في الأدب الفلسفي، مرجع سابق، ص 13
119. دريدا، جاك،(آخرون)، مدخل إلى التفكيك، مرجع سابق، ص 245
120. ماشيري، بيار، بمَّ يفكر الأدب؟ تطبيقات في الفلسفة الأدبية، مرجع سابق، ص 20
121. ليتشه، جون، خمسون مفكرا أساسيا معاصرا، مرجع سابق، ص 242
122. شيا، محمد شفيق، في الأدب الفلسفي، مرجع سابق، ص 112
123. كونديرا، ميلان، ثلاثية حول الرواية، مرجع سابق، ص 18
124. السابق، ص 475
125. ويلسون،كولن، سقوط الحضارة، (ت) أنيس زكي حسن ، دار الآداب، بيروت 1971، ص 375
126. Wilson, Colin, Voyage to a beginning; an intellectual autobiography, Crown Publishers, N. Y 1969 ,p 264
127. ويلسون،كولن،اللامنتمي، (ت) أنيس زكي حسن، دار الآداب، بيروت، 2004، ص 233
128. ويلسون،كولن، سقوط الحضارة، مرجع سابق، ص 306

129.كونديرا، ميلان، ثلاثية حول الرواية، مرجع سابق، ص 361
130. Novak,Michael, The Existentialism of Dostoievski,Blackfriars, XLIV, February, 1964, p 63
131.أيرس مردوخ& براين ماغي، نزهة فلسفية في غابة الأدب، مرجع سابق، ص ص 50- 52
132.ريشنباخ، هاينز، نشأة الفلسفة العلمية، ت. فؤاد زكريا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1979، ص34
133.نوكس، إ، النظريات الجمالية كانط-هيجل-شوبنهار،(ت) محمد شفيق شيا،بحسون الثقافية، بيروت1985، ص127
134.ماشيري، بيار، بمَّ يفكر الأدب؟ تطبيقات في الفلسفة الأدبية، مرجع سابق، ص 98
135.ماركيه، جان فرانسوا، مرايا الهوية الأدب المسكون بالفلسفة، مرجع سابق، ص 189
136.أيرس مردوخ & براين ماغي، نزهة فلسفية في غابة الأدب، مرجع سابق، ص ص 50- 52
137.ماشيري، بيار، بمَّ يفكر الأدب؟ تطبيقات في الفلسفة الأدبية، مرجع سابق، ص 142
138.بليخانوف، جورج،الفن والتصور المادي للتاريخ، (ت) جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت1977، ص 89
139.أيرس مردوخ& براين ماغي، نزهة فلسفية في غابة الأدب، إمرجع سابق، ص 33
140.ماشيري، بيار، بمَّ يفكر الأدب؟ تطبيقات في الفلسفة الأدبية، مرجع سابق، ص 12
141. طودوروف، تزفيطان، الأدب في خطر، مرجع سابق، ص 45
142.أيرس مردوخ & براين ماغي، نزهة فلسفية في غابة الأدب، مرجع سابق، ص 51
143.ماشيري، بيار، بمَّ يفكر الأدب؟ تطبيقات في الفلسفة الأدبية، مرجع سابق، ص 24
144.النبواني، خلدون، نصوص أدب فلسفية، مرجع سابق، ص 35